المجزرة والمجازر

محمد الجندي

تعرّض، ويتعرّض، الشعب الفلسطيني، في تاريخه الحديث، لسلسلة من المجازر؛ بدءاً من مجازر الاحتلال الصهيوني لفلسطين في العامين ١٩٤٧ و١٩٤٨، حيث انخفض، بنتيجتها، عدد الفلسطينيين ضمن أراضي ١٩٤٨ الى أقل من الربع، وحيث برزت في تلك الفترة مذبحة دير ياسين (العاشر من نيسان ـ ابريل ١٩٤٨) نموذجاً دموياً رهيباً، مروراً بمجزرة قبية (١٩٥٣)، ومجازر أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠، والمجازر التي احدثتها الغارات الاسرائيلية المتتابعة على لبنان، والتي تسبب بها غزو العام ١٩٨٢، وبصورة خاصة مجازر صبرا وشاتيلا، ومجازر الحرب على المخيمات في لبنان، وصولاً الى المجازر الحالية في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

تثير هذه المجازر مسائل عديدة؛ بعضها بسيط وبدهي، وبعضها معقّد، أو معقّد جداً، ويرتبط بالتحوّلات الجارية على مستوى المنطقة، وعلى المستوى العالمي.

طبعاً، ليست المسائل المتعلقة بالمجازر المذكورة متطابقة تماماً، ولكن بينها نقاط مشتركة عديدة. لنتناول، على سبيل المثال، مجموعات المسائل المتعلقة بمجزرة صبرا وشاتيلا، التي تبقى ماثلة للأعين، على الرغم من مضي سبع سنوات عليها.

أول مجموعة من المسائل هي التي تتعلق بطبيعتها المباشرة كمجزرة. الفاعلون المباشرون فيها هم، بأغلبهم، أفراد فئة لبنانية، والضحايا هم فلسطينيون بالدرجة الأولى، وبينهم لبنانيون. الفلسطينيون يحافظون على هويتهم القومية في البلدان العربية بقرار عربي ولأسباب نضالية، ولولا ذلك، لحق لهم ان يحملوا الجنسية اللبنانية؛ اذ يعيش بعضهم في لبنان منذ العام ١٩٤٨، والبعض الآخر منذ العام ١٩٦٧، والأحدث فيهم تمتد اقامتهم الى أكثر من خمس سنوات، أي الى أكثر من المدة الكافية، عموماً، لاكتساب الجنسية. عدا ذلك، للفلسطينيين منذ العام ١٩٤٨ وضع خاص في البلدان العربية اجمالاً؛ فهم يحافظون على هويتهم الفلسطينية، ولكن لا يعاملون في البلد المضيف كالأجانب. أي ان الفلسطينيين ليسوا أجانب في البلد العربي المضيف، وهذه نقطة هامة جداً، سواء بالنسبة الى الموضوع الذي نحن بصدده، أم بالنسبة الى الاطروحات الصهيونية ـ الاميركية التي تعتبر الفلسطينيين «اللبنانيين» أجانب، يجب ترحيلهم.

معنى ذلك، ان المجزرة قامت بها فئة لبنانية ضد فئة أخرى «لبنانية»، أو في حكم اللبنانية.

كيف يمكن ان يحدث ذلك؟

نعرف، طبعاً، تأثير التحريض الاسرائيلي، والاميركي؛ وليس هذا هو ما نبحث عنه هنا؛ لأنه عندما يوجد تماسك لبناني، وعندما توجد وحدة وطنية لبنانية، يكون المناخ الملائم للتحريض الخارجي